النحو العربي ودوره فى تدريس اللغة العربية

فاعلية طريقة النص فى تحصيل القواعد

إعداد : د / ربيعة عبد السلام محمد هندر

كلية الآداب

جامعة طرابلس – ليبيا

توطئة :

إن اللغة سمة تميز بها الكائن البشرى عما سواه ، خصّه الله بها لأجل التواصل، ولا تتصور حياة إنسانية بدون اللغة ؛ فهى : " منسوجة بإحكام فى التجربة الإنسانية ، حتى إنه يتعذر أن تتخيل الحياة بدونها " [1] . واللغة هى العنصر الأساسى فى تكوين المجتمع كما أنها تعبر عنه ، وتوجّه سلوك أفراده ؛ فيكون لها دور فى بنائه ، ويقوم هو بتغذيتها وتنميتها وتطويرها ؛ لأن المتكلمين باللغة هم الذين يهبون الحياة لألفاظها بإمدادها بمعانيها الخاصة بها ، فتتولّد صيغ وعبارات تخدم نظام التواصل فيما بينهم بكونها وسيلة الاتصال بين أبناء المجتمع . يقول تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات : 13) . فمن أهم مكونات المجتمع اللغة فهى من القيم الأساسية التى يجب أن يتشارك فيها أبناء المجتمع تسير جنبًا إلى جنب مع الدين والعقيدة والأعراف الاجتماعية ؛ فاللغة وسيلة التفاهم والتواصل بين مستخدميها . وتعد العربية أكثر اللغات ارتباطًا بعقيدة الأمة وهويتها وشخصيتها ؛ فهى تتميز بقدرتها الفائقة على التواصل بكونها لغة غنية دقيقة استوعبت التراث الإنسانى السابق عنها ، وتمازجت فيها الحضارات القديمة ، فنقلت إلى العالم أسس التقدم والازدهار فى شتى العلوم ، وما زال هذا ديدنها حتى يومنا هذا ؛ فهى الحافظ الأمين الذى ينقل أصفى عقيدة إلهية متمثلاً فى كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) وسنة نبيه الأمين - ﷺ - فالقرآن نزل بلسان عربي مبين ، ورسولنا الكريم أفصح من نطق بالضاد . ومن هنا فإن معلّم لغة القرآن هو الأداة التى تنقل تراث الأمة الإسلامية عبر الأجيال ، بالإضافة إلى كونه هو الذى يعمل على مد الصلة بين تلاميذه ومصادر الثقافة والمعرفة عن طريق ما يغذيهم به من مناهل اللغة الصافية ، فيحرص على تقويم ألسنتهم وأقلامهم فيُنشئون أصفى الكلام وأفصحه قولاً وكتابة .

أهمية الموضوع :

مما لا شك فيه أن لمادة النحو أهمية كبيرة فى اللغة لكن الاحتفاء بها وبطرائق تدريسها يكاد يقتصر على تعليم القواعد والقوانين التى تضبط هذه اللغة ، بالإضافة إلى سرد بعض المصطلحات ما يجعل النحو علمًا جافًا ينفر منه المتعلمون ، وتفاديًا لهذا الجفاء لا بد من مراعاة التفاعل بين المتعلم وما يحيط به ؛ بمعنى خلق قنوات اتصال بين التلميذ وبيئته تربطه بالواقع ما يؤدى إلى اكتسابه مهارات مختلفة بالإضافة إلى كفايات تمكّنه من التعبير عما يجيش فى نفسه ، ولا يتم ذلك إلاّ من خلال ربط المادة المدروسة بالواقع ، فيكون لها تأثير ملموس فى صحة نطقه وسلامة تعبيره ، وهو ما يمكن تسميته بالوظيفية فى النحو ؛ إذ لا فائدة من تلقى المعلومات وترديدها دون أن يكون لما نتعلمه صدى وأثر فى حياتنا الواقعية المعاشة ، ومن هنا فإن النحو الوظيفي يتمثل فى الأداء اللغوى

من حيث النطق والتعبير والكتابة والقراءة ، لا من حيث حفظ الحركات والمصطلحات فقط ؛ لأن تعلّم اللغة اكتساب ومهارة تجود بطول الممارسة وحسن الاستخدام لها فى تلبية مطالب الحياة .

التعريف بالموضوع :

يعد النص الأدبى جامعًا للمهارات اللغوية المختلفة ، ومن هنا يجب معالجته بشكل يحقق هذه القدرات وينمّى تلك المهارات . ويمثل النص كائنًا لغويًا يحمل فى أثنائه مجموعة من العناصر المكونة له ابتداء بالعناصر الصوتية والصرفية ، ومن ثم التركيبية والدلالية التى تسلك جميعًا فى جسم ذلك الكائن متناسقة الأطراف لا يختل فيه عنصر من العناصر السابقة ، لانتظامها فى سلك مقنن بقواعد تركيب العبارات وتماسكها وصولاً إلى الدلالة المقصودة .

النص لغة : جاء فى المعاجم أن النص يراد به : الرفع ، والوضوح ، والظهور ، والشهرة ؛ " فالمنصة ما تظهر عليه العروس لترى ، ونصّت الظبية جيدها رفعته ، ووضع على المنصة أى على غاية الفضيحة والشهرة والظهور " (2) .

أما فى الاصطلاح فقد عرفه الشريف الجرجانى قديمًا بقوله : " هو ما لا يحتمل إلاّ معنى واحدًا ، وقيل هو ما لا يحتمل التأويل " (3) ، ومن تعريفات المحدثين ما ورد عن هاليداى ورقية حسن من أن " كلمة النص تستخدم فى علم اللغة للإشارة إلى أى فقرة منطوقة أو مكتوبة ، مهما طالت أو امتدت ... والنص لا شك أنه مختلف عن الجملة فى النوع " (4) ، وهناك من عرّفه بأنه : " تتابع جمل كثيرة وتناسقها وتماسكها بحيث تصل إلى نهاية واحدة " (5) .

من خلال ما سبق يتبين أن النص عبارة عن تسلسل لمفردات اللغة قد تكون جملة ، أو عدة جمل تترابط فيما بينها فتكوّن نصًّا يؤدى المعنى المراد ؛ ولتحصيل هذا المعنى والتمكّن منه لا بد من تحليل هذا النص ، والبحث فى جزئياته المكونة له ، ولا يتم ذلك إلاّ بتفكيك الوحدات التى تكوّن منها حتى تسهل دراسته وفهمه . ومن هنا ظهر ما يعرف بعلم النص الذى يدرس النصوص على أنها بناء متداخل اللبنات . فيفصّل فى كل جزء ويتناوله بالدراسة والتحليل ؛ فلا يغفل منشئ النص ولا متلقيه أيضًا – فاللغة تواصلية – ويخص النص بالجانب الأكبر من الاهتمام بكونه المادة المنتَجة المتداولة بين المنتج والمتلقى ، فيدرس طريقة تناول المنتج وكيفية استخدامه للتراكيب والعبارات الممثلة للنص بكامله ؛ فلا يغفل عن أبنيته وأساليبه ، ولا عن طريقة رصفه وجمالياته ، وما يحويه من أثر وتأثير (تاريخ واجتماع) إلى غير ذلك ؛ فتشتمل الدراسة على مختلف العلوم ، تتداخل فيما بينها فتمتزج مع علوم العربية وفنونها لتخدم هدفًا أصيلاً هو التواصل بين متكلمى اللغة ؛ فـ " أهم ملمح لهذا العلم ؛ أنه متداخل فى صورة وثيقة مع علوم أخرى ، كعلوم الشعر والبلاغة والأدب والأسلوب

والاجتماع والنفس وغيرها ؛ لأن هذه العلوم تشتغل بالنصوص من أجل غايات تختلف باختلاف وجهات النظر الخاصة بالدارسين ، غير أن علم لغة النص الذى يرتكز على النصوص ؛ فى ذاتها وأشكالها وقواعدها ووظائفها وتأثيراتها المتباينة ؛ بوصفه فرعًا علميًا متداخل الاختصاصات يشكّل محور الارتكاز بين هذه العلوم ؛ إلاّ أنه يتأثر دون شك بالدوافع ووجهات النظر والمناهج والمقولات القائمة عليها هذه المقولات ، ويلحظ أنه قد ترسخت فى هذا العلم عدة مقولات صارت أساس التحليل المنظم ، وأهم هذه المقولات الاستعمال " (6) .

ويستمد النص معناه من معانى مفرداته وتراكيبه مجتمعة ومتسقة بسياق معين ؛ فالمعنى لا يتحقق من الكلمة مفردة بل من خلال الكلمة فى سياقها . ويختلف المعنى العام للنص باختلاف موضوعه وبحسب منشئه ؛ ومن حيث هو أداة للتواصل وسيلته اللغة فإن تحليل النص يعد أمرًا لابد منه لتحقيق هذا الهدف كى يؤدى الغرض فيكون فعالاً فى مجال التخاطب والاستعمال .

جهود القدماء فى الدراسة النصية :

يحتل المعنى مكانة عظيمة فى الدرس اللغوى ما جعل اللغويين يتعمقون فى دراساتهم ؛ فلم يقفوا عند حدود النص الخارجية بما يحويه من تراكيب وجمل ، بل تنبّهوا إلى ما يفوق ذلك ، فبرزت لديهم الوشائج والعلاقات التى تربط بين مفردات تلك التراكيب فتحيلها إلى نسق معيّن يؤدى المعنى المقصود ، فكان التركيز على الكشف عن الدلالات ، وكيفية التوسع فيها من قبل منشئ النص ببعثه طاقة إيحائية فى الألفاظ ، ووضعها فى سياقات مختلفة الأمر الذى يكسبها حياة جديدة ؛ فالسياق يلعب دورًا بارزًا فى بيان الدلالة العامة للنص بمجمله على أنه وحدة متكاملة تترابط جزئياتها بعلاقات خفية تُحكم اتساق تلك الجزئيات ، وتُسهم فى إنجاز عملية التوصيل .

ومن هنا فإن دلالة النص رهن بمكوناته ؛ لأنها تمثل اللبنات التى تشكل البناء العام له ، وتؤدى إلى تجلية المراد منه وإيصاله إلى المستقبل ؛ لأن " اللفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئًا ، وإذا قرنت بما يصلح حدث معنى واستغنى الكلام " (7) فالكلام ينعقد من خلال تآلف الكلمات وترابطها فيما بينها ؛ فالألفاظ مفردة لها معان قد تكون متعددة ، أما عند رصفها فى سياق معين فتتحدد دلالتها " إذ ليست المزية بواجبة لها فى أنفسها ومن حيث هى على الإطلاق ، ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض " (8) ، ويعد هذا الكلام أساس نظرية النظم التى جاء بها عبد القاهر الجرجانى ؛ وإشارة إلى ضرورة أخذ القواعد من خلال النصوص ، فهناك ارتباط وتآلف بين رصف الكلمات على شكل مخصوص ، ودلالاتها ؛ فـ " ليس الغرض من نظم الكلم أن توالت ألفاظها فى النطق ، بل

أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل " [9] وهذه إشارة إلى مراعاة المعنى عند رصف الكلمات لأن " الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربًا خاصًا من التأليف ، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب " [10] فالنص لا يؤدى معنى إلاّ بتنسيق عباراته وفق نسق معين بحيث يراعى فيه ضوابط اللغة ومعايير الإفادة ، وما الكلام إلا ما يحسن السكوت عليه ؛ أى شرط الإفادة وحصول المعنى مطلوب ، والإخلال بتلك الضوابط يبعد بالنص عن تحصيل الفائدة " فلا نظم فى الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويُبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك " [11] . ومن هنا يتبين مدى حرص أهل اللغة وعلمائها على الحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها وحسن التصرف فيها باتباع سننها والسير على الطريقة المثلى فى تحصيلها بأن يتشرب النشء أصولها من منابعها العذبة بالعودة إلى نفائس ما جادت به قرائح أربابها مقتدين فيه بالأسلوب الأعظم الذى جاء به التنزيل المحكم .

الدراسات النصية الحديثة :

واصل المحدثون المسير واقتفوا آثار أسلافهم فالتفتوا إلى أهمية الدراسة النصية ؛ لما لها من آثار على إجادة اللغة ، وحسن تذوقها ، وجنى أطيب ثمارها ؛ فالنص لا يشتمل على القواعد النحوية فقط ، بل يضم بين دفتيه عصارة روح قائله ، وما يوجد حوله من ملابسات تخدم فكرته وتساعده على إيصالها ؛ فيحتوى أدبًا وتاريخًا وحضارة وغيرها من المعارف ، وعند استنباط القواعد من خلاله يستشعر التلميذ كل تلك المكونات فيقبل على أخذ القاعدة النحوية بكل فعالية ؛ لأن الأساس فى تأليف النصوص ليس مراعاة قواعد النحو فقط ، بل لا بد فيه من توافق المعنى مع تلك القواعد كى يُحكم على النص بصحة التركيب وسلامة الدلالة ؛ فهناك علاقة بين المفردات والمعنى والوظائف النحوية من حيث وجود تفاعل دلالى نحوى ، وتبادل تأثيرى بينهما [12] . ويؤكد الخولى على العلاقة المتبادلة بين عناصر التركيب ، ومدى تأثيرها فى المعنى فيقول : " إن الكلمة تؤثر فى الجملة ، ولكن أحيانًا يحدث العكس الجملة تؤثر فى الكلمة ، وهذا ما يعرف بالمعنى السياقى ، كثير من الكلمات يختلف معناها حسب السياق اللغوى الذى تقع فيه ، ويحدث أن نفهم كلمة ما ، ونحن نقرأ على نحو ما ، ثم نعدل معناها فى ضوء السياق اللغوى الذى تقع فيه ، ولذلك فنحن لا نقرأ دائمًا باتجاه واحد ، كثيرًا ما نعود إلى الخلف لتعديل ما فهمنا فى ضوء ما يستجد فى أثناء عملية القراءة ، وإذا كان لكلمة ما عدة معان غير سياقية فإن السياق اللغوى هو الذى يحدد المعنى المقصود من بين تلك المعانى " [13] . وهكذا يتبين أن لغة النص ، وكيفية صياغته تعملان معًا على إيصال المعنى المراد وإتمام عملية التواصل " فكأن القارئ يخترق النص ليصل بنفسه إلى السياق المقامى ، وإلى

الظروف المحيطة بالكاتب أو الشاعر الذى يحيل إلى ذلك المقام إحالة تشف عما بين أجزاء النص ووحداته من ترابط وتفاعل داخلى يؤدى إلى نموه من المقدمة إلى النهاية " [14] فالكيفية التى يتألف بها النص ، والأنظمة التى تعمل على ترابطه وتماسكه تعد أساسًا لفهم مضمونه ودلالته " فاللغة بجانب كونها حاملة لمجموعة من المعانى فهى صيغة كلامية لفظية لا ينبغى تغافلها " [15] .

لسانيات النص ودورها فى ترسيخ القواعد :

ما يجب التنبيه إليه فيما يختص بتدريس قواعد النحو ألاّ ينظر إلى هذه المادة بكونها هدفًا فى حد ذاته ، بل يجب التعامل معها على أنها وسيلة تمنح المتعلم أداة يستفيد منها فى حياته الاجتماعية ؛ بحيث يتحقق من خلالها التواصل والتفاهم ذلك الهدف الذى وجدت اللغة من أجله ؛ فاللغة " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " [16] . ومن هنا وجب ضرورة ربط ما يتعلمه التلميذ فى المدرسة بما يحيط به فى بيئته ؛ أى الواقع الذى يعيش فيه ، حتى يتسنى له الاستفادة منه ؛ فلا فائدة لما يتعلمه إذا لم يكن له أثر فى حياته ، أو ظهرت نتيجته فى صحة نطقه وسلامة تعبيره ، وهو ما يطلق عليه مصطلح النحو الوظيفى ؛ فما الجدوى من تلقى المعلومات وترديدها دون أن يكون لها صدى فى واقع الحياة ؟ ! وهكذا يكون لقواعد النحو جانب وظيفى يتمثل فى مدى تطبيق تلك القواعد فى مخاطبات المتكلمين فيما بينهم . ومن الإشارات التى تبين عناية أهل العلم بوظيفية اللغة النظر إليها على أنها أداة للتوصيل ، ومنهم من اعتمد فكرة كونها أداة للتعبير ؛ فاللغة هى أهم وسيلة فى الاتصال الإنسانى [17] ، كما أن " النص واقعة اتصالية يشارك فيها المتكلم (الكاتب) والمستمع (القارئ) فى زمان ومكان محددين " [18] ، ويلاحظ هنا التركيز على تحديد النصوص بأنها أدوات للفعل الاتصالى ؛ وهذه إشارة إلى كون اللغة ظاهرة اجتماعية " فاللغة أداة اجتماعية يوجدها المجتمع للرمز إلى عناصر معيشته وطرق سلوكه ، ولذا يحدد طرق هذه اللغة واستعمالاتها ويضعها موضع الظاهرة الاجتماعية ، فيصدق عليها ما يصدق على كل ظاهرة اجتماعية من الخضوع لظروف التعارف والتصويب والتخطئة بحسب هذا التعارف " [19] .

ويرتكز التحليل اللسانى للنص على نقاط أساسية تشمل جوانب اللغة ، وبما أن اللغة ظاهرة اجتماعية منظمة فهى تحتوى على مستويات مختلفة تمكن الدارس من تحليلها ، وتجلية ما استتر منها بالكشف عن مستوياتها المعجمية والتركيبية والدلالية والبلاغية والتداولية . وقد أولت لسانيات النص هذه المستويات اهتمامًا خاصًا ؛ فبرز إلى السطح تحليل النصوص على ضوء المفاهيم المستفادة من تلك المستويات اللغوية ، فالنص بناء لغوى يتكون أساسًا من مفردات تواضع عليها أهل اللغة والمتكلمون بها ، وهو ما يمثل المستوى المعجمى ؛ فلكل لغة معجمها الخاص ، كما لكل نص

مفرداته المميزة له التى يختارها منتج النص بعناية ، ومن هذه المفردات المعجمية تتألف الجمل التى تشكل البناء السطحى للنص ؛ لأن الجملة أساسًا مكونة من نوعين من العناصر : الأفكار الذهنية وما تعبر عنه من معان ، والعلاقة بين تلك الأفكار [20] ، فتنشأ الجمل والتراكيب من خلال فهم موضع المفردة داخل التركيب ، ويكون هذا الفهم مشتركًا بين المنتج والمتلقى ، وهنا يبرز دور لسانيات النص فى الكشف عن العلاقات التى تربط بين تراكيب النص من خلال المستوى التركيبي ؛ وذلك لأن النظام الداخلى للعلاقات هو أساس الوصف النحوى السليم ، وهو نظام يقرر المعانى على المستوى النحوى فى مصطلحات وظيفية مناسبة للغة موضوع البحث [21] .

فاعلية النص فى التزود بالكفايات اللغوية :

إن الاهتمام باللغة العربية صار مقتصرًا على المقرر الخاص بها ، فى حين أن غيرها من المقررات لا قيد فيها ولا تتبع لعربيتها ، وما زاد الأمر سوءًا أن مقرر العربية والالتزام بقواعدها بات وقفًا على النحو وحده ، ومن ثم استشرى الداء حتى وصل الأمر إلى الاحتكام إلى إعراب أواخر الكلم فقط ، وهذا أقصى ما يمكن بالنسبة إلى تعليم العربية ، بل وصل الأمر إلى أشد من ذلك وأدهى فمعلم اللغة العربية لا يستخدمها فى تعليم طلابه ، بل يميل إلى اللهجة العامية فيحرم هؤلاء الطلاب من متعة الاستماع إلى الكلام المصفى ، والأسلوب الرائق الرصين الذى تزخر به لغتنا الغنية ، فيتحول إقبال الطلاب إلى عزوف ونفور ، ويصيبهم الفتور فلا يسعون إلى تذوق مآثر هذه اللغة ، ولا يحاولون التزود بها أو إجادتها .

ومما لا شك فيه أن تعليم القواعد هو عبارة عن نشاط ذهنى يعتمد على قدرة الفرد الابتكارية ويترجم ذلك النشاط من خلال إمكانية استخدام المتعلّم للقليل الذى تعلّمه فى مواقف جديدة ؛ ومن هنا يبرز ما يسمى بالنحو التحويلي أو التوليدى ؛ فالإنسان قادر على إنشاء كم غير محدود من العبارات والجمل لم يكن سمعها من قبل ، وهى مبنية فى أساسها على أنماط وقوالب محدودة ، وهكذا تنمو القدرة اللغوية لدى المتعلّم فيتمكّن من تطبيق قواعد ثابتة على أمثلة متغيرة ؛ وتعرّف القدرة اللغوية بأنها : " إمكان الفرد على التعامل بالألفاظ ، واستخدامها بكفاءة وطلاقة ، للتعبير عن المعاني والأفكار التى يريد أن يوصلها إلى غيره منطوقة أو مكتوبة " [22] .

مميزات طريقة النص :

إن أبسط ما يقال فى مفهوم الطريقة هو كونها وسيلة لتحقيق هدف ، أو منهجية معينة يستخدمها المعلم لتحقيق غاية نبيلة تتمثل فى إنارة عقول المتعلمين . وتعد طريقة النص فى تعليم القواعد الطريقة المثلى – فى نظرى – لتميزها بخصائص تضفيها على المتعلم من بينها :

- تنمية المهارات اللغوية فى القراءة والكتابة ؛ فعدم توظيف القواعد فى التحدث والقراءة يؤدى إلى فقد هذه المهارات .
- الوقوف على نظام اللغة وقوانينها الإعرابية كما هى ، متمثلة فى النص ، أى بشكلها الفعلى ؛ فقراءة النص جهرًا – من قبل المعلم – تتيح للتلاميذ تمييز النطق الجيد ، والفهم الواعى للمعنى .
- اللغة تعلّم من خلال اللغة ذاتها ؛ فيظهر حرص المتعلم على استعمال اللغة والتفكير بها .
- ترسيخ اللغة وأساليبها المبتكرة ، ويمتزج هذا الرسوخ بخصائص اللغة الإعرابية .
- تعتمد هذه الطريقة المران المستمد من الاستعمال الصحيح للغة فى مجالات الحياة .
- تنوع النصوص يضفى ثراء على الكفاية اللغوية الأمر الذى يخدم المتعلمين فى أثناء دراستهم ؛ لأن هذه الكفايات تنمو وتتحسن من خلال مسيرة التعلّم واستمراريته .
- اكتساب ملكة التذوق الفنى والعمل على تنميتها .

من خلال ما سبق يتبين أن الاحتكام إلى النصوص يولد نوعًا من التفاعل بين المتعلمين وما يتعلمونه ، فتظهر نتائجه وتتدلى ثماره فى مخاطباتهم وكتاباتهم ، والذى يعمل على تحقيق ذلك التفاعل ما يخلقه المعلم داخل الفصل من بث روح العمل الجماعي ، والحرص على إيجاد الدافع لدى المجموعة للعمل على التزود بما يقوّم ألسنتهم وأقلامهم ، كما يستطيع المعلّم الجيد أن يحوّل قاعة الدرس إلى باحة رحبة لمعالجة الأخطاء وحل المشكلات اللغوية ؛ بأن يرصد الأخطاء التى يكثر شيوعها بين المجموعة فتكون محورًا للدراسة ترتكز عليه فيتحول النحو من مجرد قواعد جامدة إلى وسيلة تمنح المتكلم آلة قويمة ولسان سليم فصيح ، فتكتسب بذلك صفة التداول ، وتنعكس أثارها فى الاستخدام .

ويعد التعلّم التعاونى أثرًا من أثار طريقة النص ؛ فهو يؤدى إلى وجود تفاعل بين الطلاب ، وحركية داخل المجموعة حيث يقوم المعلّم بتحديد النص ، أو يطلبه من تلاميذه فيتفق معهم على نص بعينه يكون موضع تحليل لاستخراج ما يتعلق بالقاعدة النحوية ، واستنباط أحكامها وتفريعاتها . بهذه الطريقة يظهر أثر التعاون والتنافس بين أفراد المجموعة ما ينعكس على اتجاهاتهم وميولهم للحفاظ على اللغة ، كما يبرز من خلالها شخصياتهم ، فهذه الطريقة تعمل على بناء الشخصية حيث يعبر التلميذ عن أفكاره وما يختزنه من معلومات ، فيتشارك بها مع المجموعة دون أى تردد أو خوف أو خجل ؛ لإحساسه بأنه شريك فى العملية كلها وليس طالبًا يخضع للمراقبة من قبل المعلم أو من زملائه .

وبهذا يظهر جليًّا مدى أهمية القواعد فى اللغة ؛ فاللغة نظام ، ولفهم هذا النظام لا بد من التمكّن من قواعده وضوابطه ، لكن طرائق تدريس القواعد اللغوية قاصرة عن الوفاء باحتياجات المتعلمين ما أدى إلى عدم جدواها ؛ فعدم توظيف هذه القواعد فى التحدث والكتابة والقراءة جعل من قواعد اللغة قوالب جامدة ، بل قد تكون مجوفة لا تصدر إلاّ ضجيجًا فقط ، فلا تنمى مهارات ولا تصقل مواهب [23] . ومن هنا صار لزامًا أن يتشبع النشء بالمادة الخصبة ، وأن تتعود أسماع الطلاب على الرائق من أساليب الفصحى وعيونها . ولكن يبقى السؤال هل كل النصوص تؤخذ منها اللغة ؟ . للإجابة على هذا التساؤل لابد من التعرف على مصادر النصوص التى تُستقى منها قوانين اللغة وأساليبها ؛ فليس كل نص يمكن أن تؤخذ منه اللغة ، بل يجب أن يمثل هذا النص اللغة الفصيحة الصافية ، ولا يكون ذلك إلاّ من القويم الذى يحتذى به فى أثناء التواصل ، وإنشاء العبارات والأساليب ، حتى نسمو باللغة عمّا أحاط بها من رطانة اللهجات الرديئة ، ونجلو عنها ما علق بها من أدران ، فيشع نورها ، وتتجلى أسرار بيانها ونفائس دررها .

ومن نماذج النصوص المهمة فى تدريس قواعد اللغة ما يمثلها فى أرقى صورها ويتم ذلك بالاعتماد على القرآن الكريم ، فهو المصدر الأول فى بناء المجتمع اللغوى ؛ لأنه يمثل المستوى الأعلى للغة ولا يمكن أن يتطرق إليه شك أو احتمال خطأ [24] . وبهذا فهو أفضل مصدر من مصادر دراسة اللغة وتحليل أصواتها ، وقوالب تراكيبها ونظامها . بما اشتمل عليه من قراءات متواترة وشاذة ، وأقيسة جائزة مازالت المعين الذى ينهل منه أهل العلم ، ويستنبطون منها الأحكام وقد اعترف بهذه الخصائص اللغوية فى القرآن علماءُ اللغة المحدثون الذين يتتبعون الظاهرة اللغوية ويشترطون فى المعطيات اللغوية أن تكون مادة بحتة فيركزون على وصف الأصوات ، ومنها إلى بناء النصوص [25] . ويأتى الحديث الشريف فى المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم ؛ لما فيه من صور بيانية وأساليب لغوية تمثل الفصحى فى أرقى صورها ؛ فالرسول الكريم أفصح من نطق بالضاد ، يضاف إلى هذين المصدرين ما أثر عن العرب الفصحاء من استعمالاتهم ومبانيهم اللغوية شعرًا ونثرًا ؛ فتلك النصوص هى المنبع الصافى الذى ينبغى علينا أن ننهل منه ، لأنه يشمل المناهج القويمة لتعليم اللغة من حيث أصواتها وهجاؤها ومفرداتها ونظامها وتراكيبها وأبنيتها ، فالقواعد مجرد نظام جامد يكتسب صفة الحياة من خلال الاستعمال ، واللغة وسيلة تواصل غايتها التعبير والتوصيل ، ولا يتم ذلك إلاّ بترابط المفردات وتولد دلالاتها .

وينجلى عن ذلك كله أن عملية تعلّم اللغة وفهم نظامها لا يتأتى إلاّ عن طريق عقل واعٍ وذهن صافٍ يُقبل التلميذ من خلالهما على تعلّم قواعد هذه اللغة ، حتى يمكنه السيطرة عليها بكل

مستوياتها (صوتيًا ونحويًا ودلاليًا) لأن تعلّم اللغة من خلال تحليلها يستند إلى الفهم الواعى لنظام تلك اللغة وشرط رئيس لإتقانها [26] . ومن الجدير بالذكر أنه " لا يمكن أن يتعلّم الإنسان اللغة من خلال القصور على المادة اللغوية المسموعة أو المدونة فقط ، والمعروضة بوسائل ووسائط متعددة ، فالعينة لا يمكن أن تمثل اللغة كلها ، بل تعكس فحسب صورة جزئية مختارة ، وعليه فلا بد من الاعتماد – كذلك - على حدس المتكلم فى معرفة ما يقبل وما لا يقبل من الاستعمالات اللغوية ، ويقصد بالحدس : مقدرة المتكلم على أن يدلى بمعلومة حول اللغة التى يتكلم بها " [27] . وهذا ما يبعث الحياة فى الجانب التطبيقى للغة ، ولا يقف بها عند سرد القواعد وحفظ المصطلحات ، حتى تواكب سمة التطور والنمو . ولكن هل هناك من يمتلك هذا الحدس الآن ؟ وهل يوجد من لديه الملكة اللغوية الصافية ؟ إن محاولة الإجابة عن ذلك تستدعى منا أن نصوغ سؤالاً آخر يجيب ضمنيًا عن هذه المسألة ، والسؤال هو : كيف تربى الملكة اللغوية فى زمن اختلاط اللسان ، وعدم توفر المناخ المناسب للطبع أو السليقة ؟ ! يقول ابن خلدون : " ووجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم [العرب] القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضًا فى سائر فنونهم ، حتى يتنزّل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ، ولقن العبارة عن المقاصد منهم ، ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عبارتهم ، وتأليف كلماتهم ، وما وعاه وحفظه من أساليبهم ، وترتيب ألفاظهم ، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ، ويزداد بكثرتها رسوخًا وقوة " [28] ، ويؤكد على تأثير المسموع فى اكتساب الملكة اللغوية وتنميتها فيقول : " وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظمًا ونثرًا ، ومن حصل على هذه الملكات قد حصل على لغة مضر ، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها ، وهكذا يجب أن يكون تعلمها " [28] . وبهذا تتبين الخطوط العريضة للحفاظ على اللغة سليمة صافية بأخذها مشافهة وسماعًا من أفواه فحولها وأربابها ، وهو ما يوجب على معلّم العربية ألاّ يستخدم غيرها فى أثناء القيام بالعملية التعليمية حتى يتلقاها المتعلم ممن يجيدها نطقًا ويتقنها كتابة ؛ وضرورة استعمال الفصحى من قبل المعلمين عند تدريسهم للطلاب من شأنه أن ينمى لديهم الملكة نتيجة لتعود أسماعهم على اللغة الصافية ، وكما قيل " السمع أبو الملكات اللسانية " [29] ، فيتدربون على الاستماع الجيد ، ومن ثم تتكون لديهم الكفايات اللازمة لاستعمالها فى مخاطباتهم ، والقدرة على التعبير بها ومن خلالها . ولكن كيف يمكن لهذه الملكة أن تتغير ويتفشى فى الألسنة الفساد ؟ وهو ما يلاحظ فى الواقع المعاش – مع الأسف – من جنوح جلّ المعلمين إلى استخدام لغة ركيكة ، بل قد

يصل الأمر ببعضهم إلى حد استعمال اللهجة العامية أو لغة الحياة اليومية – كما يحبون تسميتها – وهذا لعمرى نابع من عدم إحساسهم بالمسؤولية تجاه هذه الأمانة ، فهم من حيث لا يدرون يكونون كالمعاول التى تسعى لهدم صرح هذه اللغة أو لنقل إضعافها ، ولا شك أن اختلاط اللسان بأكثر من لغة من شأنه أن يضعف المقدرة اللغوية عمومًا ، وينتج هذا الضعف بسبب عدم تشرّب الأسماع للغة الصافية السليمة ؛ " فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيما يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم فى مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات فى معانيها ، فيلقنها أولاً ، ثم يسمع التراكيب بعدها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم ، واستعماله يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة .... ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم ، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع فى العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب ، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات العرب أيضًا فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه ، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى ، وهذا معنى فساد اللسان العربي " [30] . وهذا من الخطورة بمكان ففيه هجمة شرسة على لغتنا الأم بما يسمى (لغة العصر) وهى فى حقيقتها العامية التى تحمل فى طياتها لغة أجنبية أو أكثر فى أغلب الأحيان حتى باتت كالثوب المرقع الذى يحوى رقعًا كثيرة حتى لا يكاد يبين الأصل منه . ويجب علينا الانتباه إلى هذا الأمر ، ومحاولة درء هذا الخطر بالوقوف فى وجهه ، واستنهاض الهمم للنهوض باللغة العربية ، وجعلها لغة التخاطب والاستخدام الأمر الذى يعطيها صفة التداولية ، حتى نبتعد بها عن الغربة وسط أوطانها وبين أهلها ومتكلميها . وأول الطريق يكون بالأخذ الجيد لأصول اللغة من خلال تناول النصوص كما هى بنطقها الصحيح ، وتدرّس من حيث أصواتها ومفرداتها ، وتراكيبها ودلالاتها ، وهذا التناول هو ما يجب أن يمثل الشكل الجديد للنحو .

إن العيب ليس فى اللغة فى حد ذاتها – كما يدعى البعض وينظرون إليها على أنها لغة تخلف ولا تساير العصر ، بل العيب فى طريقة اكتسابنا لهذه اللغة التى صارت من المكتسبات ، وكأنها غريبة عنا ، وليست لغتنا الأم ، وكأننا لسنا مسؤولين عنها ، وهى هويتنا ووسيلة تعبدنا وتقربنا إلى الله ، هى لغة القرآن ولغة أهل الجنة ، ومن هنا وجب أن تتغير نظرتنا إليها ، وأن نحسن العمل لإتقانها والعودة إلى منابعها ؛ فنبعد بها عن الجفاف والصنعة حتى تسيل على شفاهنا رائقة عذبة ، تطرب الأسماع ، وتعلق بالأذهان ، وتعيها القلوب والعقول .

خاتمة

إن استخدام الطريقة التقليدية فى تدريس النحو العربي تنتج أجيالاً تكاد تكون مستعربة لا عربية ؛ فقد يتعلم المتعلّم القراءة الصحيحة ، وبعض قواعد النحو والصرف ومصطلحاتهما ، ولكنه عاجز عن استخدام هذه المعطيات فى أثناء التعبير الشفوي أو الكتابي ؛ لأنه لم يجعل هذه اللغة وسيلة للتخاطب والتواصل . ومن هنا لا بد أن يُراعى اكتساب هؤلاء المتعلمين للمهارات اللغوية التى تعمل على إمدادهم بالكفايات الكفيلة بإتقانهم للغة ، واستخدامهم لها بكل سهولة ويسر فتنساب لهم طواعية ؛ لكن هذا لا يتأتى من خلال استظهار القواعد والمصطلحات دون الانتفاع بها ، بل يجب تغيير طرائق تدريس تلك القواعد ، واستحداث وسائل حديثة تجذب انتباه الطلاب ، وتدفعهم نحو تعلمها ووجوب إتقانها كما هو الحال مع طريقة النص مثلاً لما فيها من بعث الرغبة فى تذوق تلك النصوص وفهمها ومحاولة النسج على منوالها ، فيستطعم التلميذ ما طاب من ثمار لغته ، ويتذوق العذب الرائق من أساليبها .

أهم النتائج والتوصيات

- النص وحدة لغوية تعمل على تنمية التذوق الأدبى للغة، فيسهم فى الحفاظ عليها ، ودراسة قواعد اللغة عن طريق هذه النصوص من شأنه أن يضفى عليها حيوية ، فتبتعد القواعد عن ذلك الشكل الجاف الذى يعد سببًا رئيسًا فى نفور لطلاب من المادة .
- العمل الجماعى مبدأ لا بد منه لإنجاح العملية التعليمية ؛ فالطالب عندما يشعر بأنه شريك فى العملية يبذل أقصى جهده ، وتتحول قاعة الدرس إلى حلبة تمتاز بالحركة والنشاط سببه التفاعل بين الطلاب ، كما أن المحاورة داخل الفصل الدراسى تخلق جوًا من التنافس بينهم ما يؤدى بدفع عجلة العلم إلى الأمام ، وتحصد جرّاء ذلك أفضل النتائج .
- إن تشجيع الطلاب على استخدام اللغة العربية السليمة من الأخطاء ، والبعيدة عن العاميات مع زملائهم ومدرسيهم فى أثناء الدرس وبعده ، وجعلها لغة الاستعمال اليومى فى كل مناحى الحياة - من شأنه أن يعمل على تقوية الملكة لديهم ؛ لأن الدربة والمران أساس النطق الجيد .
- ضرورة ربط موضوع الدرس (النص المختار للتطبيق عليه) بالواقع ، حتى تتوثق الصلة بين التلميذ والحياة الواقعية وكذلك مع البيئة التى يعيش فيها ، فهذا كفيل بأن يقوى الرابط بينه وبين مجتمعه ، ويضفى سمة الحيوية على موضوع الدرس ، فيثير اهتمام التلاميذ ما يجعلهم يقبلون عليه ، ويشاركون فيه ، فتتعمّق معارفهم ويتحسّن أداؤهم .

الهوامش :

1 - بنكر (ستيفن) ، الغريزة اللغوية كيف يبدع العقل اللغة ، تر : د . حمزة بن قبلان المزينى ، دار المريخ ، الرياض – السعودية ، 2000 م ، ص : 23 .

2 – ابن منظور ، لسان العرب ، تح : عيد على وآخرين ، دار المعارف ، مادة (ن ص ص) .

3 – الشريف الجرجانى ، كتاب التعريفات ، مك : لبنان ، 1969 م ، ص : 360 .

4 – صبحى إبراهيم الفقى ، علم اللغة النصى بين النظرية والتطبيق ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ط : 1 ، 2000 م : 1 / 31 .

5 – فولفجانج هاينه مان وديتر فيهفجر ، مدخل إلى علم لغة النص ، تر : د : سعيد بحيري ، مك : زهراء الشرق – القاهرة ، ط : 1 ، 2004 م ، ص : 53 .

6 – مدخل إلى علم لغة النص ، ص : 94 .

7 – المبرد ، المقتضب ، تح : عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب – بيروت : 4 / 126 .

8 – عبد القاهر الجرجانى ، دلائل الإعجاز ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط : 3 ، 1999 م ، ص : 82 .

9 – السابق نفسه ، ص : 56 .

10 – عبد القاهر الجرجانى ، أسرار البلاغة ، تح : عبد المنعم خفاجى وعبد العزيز شرف ، دار الجيل – بيروت ، ط : 1 ، 1991 م ، ص : 22 .

11 – دلائل الإعجاز ، ص : 59 .

12 - انظر : د ، محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ، دار الشروق – القاهرة ، ط : 1 ، 2000 م ، ص : 85 وما بعدها .

13 – د ، محمد الخولى ، علم الدلالة (علم المعنى) دار الفلاح للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، 2001 م ، ص : 69 .

14 – مدخل إلى علم لغة النص ، ص : 21 .

15 – د ، عبد الله أحمد جاد الكريم حسن ، الدرس النحوى فى القرن العشرين ، مك : الآداب – القاهرة ، ط : 1 ، 2004 م ، ص : 275 .

16 – ابن جنى ، الخصائص ، تح : محمد على النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ط : 2 ، 1 / 33 .

17 – انظر : د ، عبده الراجحى ، فقه اللغة فى الكتب العربية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ، 1972 م ، ص : 69 .

18 – د ، عزة شبل محمد ، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق ، مك : الآداب – القاهرة ، ط : 1 ، 2007 م ، ص : 1 .

19 – د ، تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، عالم الكتب ، ط : 5 ، 2006 م ، ص : 28 .

20 – انظر : د ، على زوين ، منهج البحث اللغوى بين التراث وعلم اللغة الحديث ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ط : 1 ، 1986 م ، ص : 78 .

21 – انظر : د ، محمود السعران ، علم اللغة ، دار الفكر العربي ، ط : 2 ، 1997 م ، ص : 194 .

22 – فرج عبد القادر طه وآخرون ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي – القاهرة ، دار الصباح ، 1993 م ، ص : 630 .

23 – انظر : د ، ظبية سعيد السليطي ، تدريس النحو العربي فى ضوء الاتجاهات الحديثة ، الدار المصرية ، ط : 1 ، 2002 م ، ص : 288 .

24 – فى أصول النحو ، سعيد الأفغانى ، ط : 1 ، 1987 م ، ص : 28 .

25 – انظر : فيرديناند دى سوسير ، دروس فى الألسنية العامة ، تر : صالح القرمادى وآخرون ، دار العربية للكتب ، طرابلس – ليبيا ، ط : 1 ، 1985 م ، ص : 48 – 49 .

26 – انظر : رشدى طعيمه ، المرجع فى تعليم اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، 1 / 399 .

27 – محمد حسن عبد العزيز ، القياس فى اللغة العربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة - مصر ، ط : 1 ، 1995 م ، ص : 140 – 141 .

28 – ابن خلدون ، المقدمة ، دار الشعب ، ص : 526 – 527 .

29 – السابق نفسه ، ص : 515 .

30 – السابق ، ص : 522 – 523 .

المصادر والمراجع

1. بنكر (ستيفن) ، الغريزة اللغوية كيف يبدع العقل اللغة ، ترجمة : د . حمزة بن قبلان المزينى ، دار المريخ ، الرياض – السعودية ، 2000 م .
2. تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، عالم الكتب ، الطبعة : الخامسة ، 2006 م .
3. ابن جنى ، الخصائص ، تحقيق : محمد على النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان الطبعة : الثانية .
4. ابن خلدون ، المقدمة ، دار الشعب .
5. رشدى طعيمه ، المرجع فى تعليم اللغة العربية ، جامعة أم القرى .
6. سعيد الأفغانى ، فى أصول النحو ، الطبعة الأولى ، 1987 م .
7. الشريف الجرجانى ، كتاب التعريفات ، مكتبة لبنان ، 1969 م .
8. صبحى إبراهيم الفقى ، علم اللغة النصى بين النظرية والتطبيق ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، الطبعة : الأولى ، 2000 م .
9. ظبية سعيد السليطي ، تدريس النحو العربي فى ضوء الاتجاهات الحديثة ، الدار المصرية ، الطبعة : الأولى ، 2002 م .
10. عبد القاهر الجرجانى ، أسرار البلاغة ، تحقيق : عبد المنعم خفاجى وعبد العزيز شرف ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة : الأولى ، 1991 م .
11. دلائل الإعجاز ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة : الثالثة ، 1999 م .
12. عبد الله أحمد جاد الكريم حسن ، الدرس النحوى فى القرن العشرين ، مكتبة : الآداب – القاهرة ، الطبعة : الأولى ، 2004 م .
13. عبده الراجحى ، فقه اللغة فى الكتب العربية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت 1972 م .
14. عزة شبل محمد ، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق ، مكتبة : الآداب – القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2007 م .
15. على زوين ، منهج البحث اللغوى بين التراث وعلم اللغة الحديث ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، الطبعة : الأولى ، 1986 م .
16. فرج عبد القادر طه وآخرون ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي – القاهرة ، دار الصباح 1993 م .

17.فولفجانج هاينه مان وديتر فيهفجر ، مدخل إلى علم لغة النص ، ترجمة : د : سعيد بحيري ، مكتبة : زهراء الشرق – القاهرة ، الطبعة : الأولى ، 2004 م .
18.فيرديناند دى سوسير ، دروس فى الألسنية العامة ، ترجمة : صالح القرمادى وآخرون ، دار العربية للكتب ، طرابلس – ليبيا ، الطبعة : الأولى ، 1985 م .
19.المبرد ، المقتضب ، تحقيق : عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب – بيروت .
20.محمد حسن عبد العزيز ، القياس فى اللغة العربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة - مصر ، الطبعة : الأولى ، 1995 م .
21.محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ، دار الشروق – القاهرة ، الطبعة : الأولى ، 2000 م .
22.محمد الخولى ، علم الدلالة (علم المعنى) دار الفلاح للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، 2001 م .
23.محمود السعران ، علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي ، دار الفكر العربي – القاهرة ، الطبعة : الثانية ، 1997 م .
24.ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق : عيد على وآخرين ، دار المعارف .